

جذور حركة التفسير في الجزائر وتطورها



خالد بن زيان

السنة الثالثة دكتوراه

تفسير وعلوم القرآن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

ملخص

هذا البحث هو محاولة لإظهار وبيان جذور حركة التفسير في الجزائر وتطورها وامتدادها، وأنه عريق في هذه الأمة عراقا ارتباطها بهذا الدين، فهو يهدف لتوضيح المراحل التي مرت بها مدرسة التفسير وبعض ملامحها وخصائصها، وبيان جذورها التاريخية وتطورها إلى الآن مع ذكر لبعض أشهر المفسرين الجزائريين الذين ساهموا في نهضة هذا العلم وانتشاره.

Abstract:

The subject of this article is about the different historical periods of the Interpretation of the Coran in Algeria.

From the Prophet Muhammed (P B U H) until Now and it's progress.

This present paper will illustrate that the interpretation of Coranic text in Algeria has a source and origin and an old history and may help researches to recognize the Characters of the Algerian's interpretation of the Coran by giving some examples of the most known scholars that they help in the development if the interprotion of coran.

عناصر البحث

- مقدمة.
- أولا: أثر الفتح الإسلامي للمغرب العربي في انتشار التفسير.
- ثانيا: أثر المدرسة المالكية والإباضية في حركة التفسير.
- ثالثا: تطور حركة التصنيف في التفسير بدءاً من القرن الثالث الهجري إلى الآن.
- الخاتمة.

لا شك أن علم التفسير له فضل عظيم، وميزة لا يدانيه فيها غيره، فهو من أشرف العلوم المتعلقة بأشرف الكتب وأجلّها وهو القرآن الكريم، إذ شرف العلم من شرف المعلوم؛ فهو يتعلق ببيان كلام ربّ السموات والأرض. ولا شك أيضاً أن الاشتغال بكتاب الله تعالى عموماً ومن جهة تفسيره بالخصوص شرف عظيم، ولما كانت حاجة الأمة ماسة إلى معرفة تفسير كتاب ربها والوقوف على أسرارها لأجل إقامة تفاصيل الحياة الإسلامية على أساس من عقائده وأحكامه، أردت أن أنخرط في سلك من خدم هذا العلم، وأحرز شرف النهوض به في بلادنا الجزائر.

ظل تفسير القرآن الكريم حاجة دينية، تستجيب لتطلعات المؤمنين لفهم كلام الله تعالى وتدبر آياته ﴿يَذَكِّرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَلِيَذْكُرُوا لِلْآلَةِ﴾ [ص: 29]، وهو أيضاً حاجة علمية لكون القرآن الكريم وقع محورياً لأغلب العلوم الشرعية من عقائد وأحكام... وما توقف فهمه عليها من لغة وبيان. وقد تولى مهمة تفسير القرآن الكريم وبيان معانيه رسول الله ﷺ عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]، ولقد قال ابن خلدون في ذلك: (فكان النبي ﷺ يبين المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ، ويعرفه أصحابه، فعرفوه، وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه)⁽¹⁾.

وسواء قلنا إنه عليه الصلاة والسلام قد فسّر كل آيات القرآن الكريم كما صرح بذلك قوم ومنهم الإمام ابن تيمية فقد قال: «فَصُلُّ: يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَ لِأَصْحَابِهِ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ كَمَا بَيَّنَ لَهُمُ الْفَاطَةَ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) يَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا»⁽²⁾، أو أنه عليه الصلاة والسلام لم يفسر إلا ما احتاج إلى التفسير⁽³⁾؛ فإن النتيجة هي أن ما وصلنا من جهته عليه الصلاة والسلام - بعد الاستقصاء - مقادير محدودة من ذلك وقد تم جمعها في الصحاح والسنن والمسانيد، وعلى ما في كثير منها من مقال. ثم تولى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من بعده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بيان ما احتاج الناس

(1) مقدمة ابن خلدون عبد الرحمن بن خلدون، القاهرة، دار الشعب، 1389هـ، ط 1، 251.

(2) مجموع فتاوى ابن تيمية، 3/191.

(3) الإتيان في علوم القرآن، عبد الرحمن السيوطي، دار المعرفة، 179/2.

إلى ظهور معناه، سواء تعلق الأمر باللغة ومفرداتها، أو تعلق بذكر سبب نزول الآيات أو غير ذلك من أنواع التفسير وبيان الأحكام. وإن من أشهر الصحابة المفسرين عبد الله بن عباس (ت: 68هـ) ترجمان القرآن، وعبد الله بن مسعود (ت: 32هـ)، والإمام علي بن أبي طالب (ت: 40هـ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ⁽¹⁾. ثم انتقل التفسير إلى التابعين وتابعي التابعين إلى أن وصل إلينا ومرت مدرسة التفسير بالجزائر بأطوار ومراحل تدل على تجذرها وقد ساهم في ذلك ثلاثة عوامل كان لها الأثر البالغ في ازدهار التفسير بالمغرب عموماً وبالجزائر خصوصاً.

- 1- أثر الفتح الإسلامي للمغرب العربي في انتشار التفسير.
- 2- أثر المدرسة المالكية والإباضية في حركة التفسير.
- 3- تطوّر حركة التصنيف في التفسير بدءاً من القرن الثالث الهجري.

أولاً: أثر الفتح الإسلامي في حركة التفسير في الجزائر

وقد قدم إلى المغرب العربي مع جيش الفتح الإسلامي جملة من الصحابة الكرام فقد ذكر أبو بكر عبد الله المالكي⁽²⁾، أن الخليفة عثمان بن عفان استشار أصحاب رسول الله في غزو إفريقية فأجابوه إلى ذلك ف«خطب الناس وندبهم إلى الغزو إلى إفريقية، فخرج جماعة من الصحابة منهم عبد الله بن الزبير وأبو ذر الغفاري، وعبد الله بن عباس... وعبد الرحمان بن أبي بكر، وعبد الرحمان بن صبيحة، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأخواه...، وعبد الله بن عمرو بن العاص.... وغيرهم من قبائل شتى. خرج جميعهم مع عبد الله بن أبي السرح العامري سنة سبع وعشرين من الهجرة»⁽³⁾.

ولا شك أن الحياة العلمية بما اشتملت عليه من التفسير قد بدأت مع أول غزوة سنة 27هـ، والتي اشتملت على عشرين ألفاً. وقد قال أبو العرب في الطبقات في شأن هذه الغزوة: «أكثرهم أصحاب رسول الله ﷺ»⁽⁴⁾. سواء

(1) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، ط2، 1396هـ/1976م. 50/1.

(2) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم لأبي بكر المالكي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1403هـ، 98-60/1.

(3) رياض النفوس، 16/1.

(4) طبقات علماء إفريقية، لأبي العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني، الدار =

تعلق الأمر بتعليم العربية للمسلمين الجدد من البربر أو شرح مبادئ الإسلام والتي أساسها القرآن إذ لم تكن المذاهب قد ظهرت بعد بالشكل الذي انتهت إليه عموماً بعد القرن الأول.

وفي هذا النص أن عبد الله بن عمر كان ممن خرج وهو من أهل الرواية، وقد سمع الناس منهم بل وأخذوا عنهم من غير شك بيان ما كان يحتاج إليه من الآيات والأحكام. وفي بعض النصوص ما يفيد أن «منهم عبد الله بن عمر الذي روى عنه يزيد بن قاسط الإفريقي، وميسرة الزرودي... وجاء قوم إليه وهو بإفريقية فلما أرادوا فراقه قالوا: زدنا منك حديثاً ننتفع به»⁽¹⁾. والزمن زمن رواية ولها المقام الأول في البيان.

وفيه أيضاً أن منهم عبد الله بن عباس ترجمان القرآن وعليه مدار حركة التفسير بماله من قبول في التفسير واسع ومعتمد؛ إذ كان بيان القرآن للمسلمين الجدد هو أساس التعليم، وعمود الدعوة إليه، خصوصاً وقد توفر لديهم من السنة النبوية ما يبين تفاصيل القرآن على أوسع مدى. وإن ذلك كله تم باللغة العربية في المجالس الأولى والتي استمرت إلى أن تم الفتح، وحصل استقرار عقيدة الإسلام وشريعته بأرض المغرب بعد قلاقل وزلازل حصلت بالمغرب حتى حسم موسى بن نصير القضية لصالح الدين الجديد وأتباعه.

وقد قام عقبة بن نافع رَحِمَهُ اللهُ ببناء عدة مساجد بالمغربيين الأقصى والأوسط، والتي كانت بلا شك مراكز تعليمية، وترك صاحبَه شاكراً في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام...، ثم جاء من بعده حسان بن النعمان الذي خصص ثلاثة عشر فقيهاً من التابعين، ليعلم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام⁽²⁾. وهذا النص الأخير عام شامل لكل بربر المغرب الأوسط وغيرهم. كما هو عام وشامل من جهة أن التعليم المقصود قد حوى التفسير وغيره.

ونحن نعتقد أن هذه الحركة المباركة لتعليم القرآن وبيان مقاصده بقيادة الصحابة قد مثلت أرضية طيبة في تأسيس عمل التفسير، وخصوصاً أن

= التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الثانية، 1985م، ص 5.

(1) طبقات أبي العرب، 91، 93.

(2) البيان المغرب في أخيار الأندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشي (ت: 706هـ) الدار العربية للكتاب، بيروت، ط 3، 1983، 27/1، والطهوني، 50/1.

المذاهب لم تكن قد ظهرت بعد سواء منها العقدية أو الفقهية؛ بل كان القرآن هو محور كل تصور، ومرجع كل حركة. ثم انضم إلى ذلك الجهد المبكر ما تم من عمل التابعين؛ فإنهم قد تولوا التفسير من بعد الصحابة، وقد سمعوه منهم، وأخذوه عن أهلهم غضا طريا. وقد دخل منهم جلة المغرب العربي مع جيش الفتح الإسلامي كما في معالم الإيمان للدباغ⁽¹⁾ وطبقات إفريقية لأبي العرب وغيره. بل إن أبا العرب قال في شأن غزوة عام 45هـ: «وكان في عسكره خمسة عشر رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ، وسائر ذلك تابعون»⁽²⁾.

وقد تكرر دخول عبد الله بن عمر أرض المغرب سنة خمس وأربعين رفقة معاوية بن حديج والي معاوية على مصر وإفريقية فقد قال المالكي يؤرخ للمرحلة « فلما ولي معاوية عزل عبد الله بن أبي السرح عن مصر وإفريقية، وولى عليها معاوية بن حديج الكندي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان ذلك سنة أربعين؛ فأراد معاوية غزو إفريقية فأغزاها معاوية بن حديج فخرج من مصر سنة خمس وأربعين، ومعه عبد الله بن عمر وابن الزبير وجماعة من الصحابة وغيرهم من التابعين»⁽³⁾.

وفي هذه الغزوة وصلت جيوش أبي المهاجر أقصى حدود الجزائر من جهة الغرب فقد ذكرت الروايات «إنا أبا المهاجر صالح بربر إفريقية، وفيهم كسيلة الأوربي، وأحسن إليه، وصالح عجم إفريقية، وخرج بجيوشه نحو المغرب ففتح كل ما مر عليه حتى انتهى إلى العيون المعروفة «بأبي المهاجر» نحو تلمسان»⁽⁴⁾؛ فهو فتح مبكر متصل الإسناد بجهد الصحابة الدعوي والعلمي. وإنما أوردنا هذا النصوص وخصوصا الأخير منها لبيان أن الفتح قد تم في زمن مبكر وأن الصحابة قد شاركوا فيه، وقد كان هذه المشاركة تستمر شهورا طويلة يتم فيها تعليم الناس - في ضمن ما يتم تعليمه - القرآن، وتداول بيانه

(1) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدباغ (ت: 696هـ) مكتبة الخانجي، مصر، 180/1.

(2) رياض النفوس للمالكي، 11/1. قال المحقق هذا في الغزوة الثانية، بينما كان معه في الغزوة الأولى سنة 50هـ عند تأسيس القيروان ثمانية عشر رجلا فقط. حاشية رياض النفوس، 10/1.

(3) رياض النفوس، 28/1.

(4) رياض النفوس 34/1. الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى: أحمد بن ناصر السلاوي، ولدى المؤلف. دار الكتاب، دار البيضاء، 1954م. 136/1.

من جهة التأويل والتفسير.

وقد كان البربر الذين دخلوا هذا الدين من ضمن هذا الجيش، كما كان أهل البلاد كذلك ولا عجب أن يتم تداول كل ذلك بلغة العرب التي وقع بها بيان القرآن وإعجازه. وأن ذلك كان بصفة مكثفة عبر دروس مستمرة وواسعة فسرت لنا تمكن العربية من قلوب أهل البلاد المفتوحة ففي البيان المعرب أن موسى بن نصير "أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن، وأن يفقهوهم في الدين" ⁽¹⁾؛ حتى إذا انقضت فترة الجيل الأول من الفاتحين كانت العربية قد تمكنت من السنة المقبلين على هذا الدين بقوة، والطلابين لتحصيل المعرفة بكتابه بحرص وشوق. ففي نص عام يبين مدى الاجتهاد في تعليم البربر العربية والقرآن: "وترك موسى بن نصير سبعة عشر رجلاً من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام، وقد كان عقبه بن نافع ترك فيهم بعض من أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام: منهم شاكر صاحب الرباط وغيره" ⁽²⁾.

إضافة إلى أن الخليفة عمر ابن عبد العزيز رحمه الله (102هـ) قد أرسل عشرة نفر يعلمون البربر أحكام الإسلام والقرآن ⁽³⁾، وكان موسى ابن نصير قد فعل مثل ذلك قبله إذ «ترك موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب لتعليم القرآن وفرائض الإسلام، ورجع إلى إفريقية، ولم يبق بالبلاد من ينازعه من البربر ولا من الروم» ⁽⁴⁾. وهو نص يدل على حصول الاستقرار بأرض المغرب والتفرغ للحركة العلمية وهو ما تم فعلاً وستظهر آثاره فيما سيتم من بعد من إنجاز تفسيري ⁽⁵⁾. بل في بعض النصوص «أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أرسل مصحفاً إماماً إلى المغرب، وكان محفوظاً في بيت الحكمة القيرواني» ⁽⁶⁾.

وليس فيما بين أيدينا ما يدل على وجود عمل تفسيري مدون ولا على ما

(1) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 16/1.

(2) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 16/1.

(3) البيان للمراكشي، 42/1، مقدمة ابن خلدون، 136/1.

(4) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان (ت: 810هـ)، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1398هـ، 320/5.

(5) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان لأبي محمد بن عبد الله اليافعي اليمني، بيروت، 1954 م. 1/92.

(6) رحلة العبدري، 65.

تم من استيفاء ختم التفسير فيما عقد من مجالس العلم. ومرجع ذلك والله أعلم إلى تأخر الاستقرار بأرض المغرب، فقد ذكر في التاريخ أن البربر قد ارتدوا في غضون القرن الأول أزيد من أثني عشرة مرة. وواضح أن نضج الحركة العلمية، واتساعها، وتعدد فنونها فرغ الاستقرار السياسي، والاتساع العمراني، وتشيد المساجد والمدارس. ولما كان هذا متعسرا تعسر معه أكثر مما ذكرنا من التوفر على المجالس الأولى المشار إليها آنفا.

ثانيا: أثر المدرسة المالكية والإباضية في حركة التفسير

وقد أثر عن أئمة الفقه كلام في التفسير جمعه التلاميذ من بعدهم، فهذا الإمام مالك (179هـ) رحمه الله قد روى عنه تلميذه المخزومي جملة من التفسير كما ذكر ذلك عياض في المدارك⁽¹⁾. فإذا أضفنا إلى ذلك كله ما كان يتم من الرحلة العلمية إلى المدينة المنورة ومصر وغير ذلك من الأقطار تبين لنا أن حركة التفسير بدأت مبكرة فقد صاحبت المجالس الأولى التي كان يقيمها الفاتحون من الصحابة والتابعين، وما تم نقله من الروايات الأولى للأحاديث النبوية إذ كانت تحمل بابا في التفسير غالبا.

وقد ذكر الذهبي في السير أن يحيى بن سلام أخذ عن مالك والثوري والشعبي في جماعة وأنه: "سكن إفريقية دهرا، وسمعوا منه تفسيره الذي ليس لأحد من المتقدمين مثله"⁽²⁾. والذي يبدو أن هذا التفسير قد حاز القبول عند أهل المغرب؛ إذ كان تفسيرا بالمأثور عن أئمة التفسير من الصحابة والتابعين، كما تدل عبارة "سمعوا عنه تفسيره" أي أهل المغرب، وقد اشتغل الإباضية باختصاره كما فعل هود بن محكم الهواري، وغيره. وهو تفسير مسند وقد وصلنا سالما.

هذا وإن البربر بما لهم من لسان مختلف قد جعل عمل التفسير في بداياته يتم على مرحلتين: مرة بترجمة كلمات القرآن إلى لسان البربر، وأخرى بتفسير معاني الآيات للمسلمين الجدد؛ فكان هذا إذا ثبت أشبه بالترجمة التفسيرية. وإنه ومنذ ذلك الزمان تتابع عمل التفسير رواية له واشتغالا به؛ فكان هذا

(1) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، الطبعة الثانية، 1403هـ، 110/1.

(2) أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1042 هـ / 1982 م، (9/397).

المطلب من أهم المطالب الدينية؛ لتعلقه أولاً بالقرآن، ثم لشدة الحاجة إليه لما عرفه المغرب من بعد من اختلاف وظهور للفرق، وسعي كل فرقة للانتظام تحت مظلة القرآن عن طريق تأويل نصوصه.

هذا وبتتبع كتب الطبقات والتراجم والتاريخ يظهر جليا ولأول وهلة أن جملة من الأعيان بالمغرب الأوسط - الجزائر فيما بعد - قد اشتغلوا بالتفسير رواية ودراية، واهتموا بمباحث القرآن إسوة بما كان يتم إنتاجه بالمشرق وأرض الأندلس من بلاد الإسلام. وكانت حلقات التفسير تعقد بالمساجد خصوصا وبالمدارس؛ بالمساجد حيث يتم عرض القرآن مفسرا لعموم المؤمنين، وبالمدارس حيث تختص الطبقة العليا بالوقوف على مباحث جليلة في تفسير كلام الله تعالى، ويتم فيها تداول المشهور من تفاسير أهل القرون السابقة، وربما تفاسير المعاصرين، وأشهر الأقوال المعتمدة في توجيه الآيات. إضافة إلى ما وجد واشتهر من التأليف في مجال علوم القرآن عموما والتفسير خصوصا.

وبتتبع كتب التاريخ والتراجم والطبقات كالبيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب، ومقدمة ابن خلدون، ووفيات الأعيان، ومرآة الجنان يتبين أن جذور الحركة التفسيرية بدأت من القرن الأول وخصوصا في غزوات الفتح على ما بيناه سابقا وامتدت إلى يوم الناس هذا. وسنحاول أن نشير في كل قرن إلى من عرف بالتفسير اشتغالا تحصيليا أو تدريسا، ومن عرف بالتفسير تأليفا. وإن ذلك على قلته إلا أنه يدل على أصالة هذه المدرسة وامتدادها في التاريخ، ومواكبتها غيرها من المدارس اشتغالا وتأليفا، وهو ما سنبينه بما توفر لدينا من مصادر ودلائل.

ولنختم الكلام عن القرن الأول بما كان لعكرمة⁽¹⁾ تلميذ ابن عباس من

(1) طبقات المفسرين للدواودي، طبقات المفسرين: لأحمد بن محمد الأذنوي، الناشر مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة. الطبعة الأولى 1417هـ / 1997م، 386/1. طبقات المفسرين للأذنوي 12، معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر: لعادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، الطبعة الثالثة 1400هـ. 348/1، التفسير والمفسرون 107/1، الطبقات الشافعية الكبرى، الإمام أبي نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي دار المعرفة، بيروت لبنان، 287/5، تاريخ المغرب الكبير» السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، 1971، 49/4، رياض النفوس، 145/1، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، 1400هـ/326، =

جهد مستمر في تعليم التفسير ففي بعض المصادر «وكانت دروسه في التفسير في جامع عقبة»⁽¹⁾. ولا حاجة بنا إلى الإشادة بتمكن عكرمة في التفسير وعلوّ سنده فيه، ورجوع العلماء إليه في ما نقل عن ابن عباس أو اختاره من التفسير باجتهاده إذ قال عنه الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة... قال قتادة: أعلم الناس بالتفسير عكرمة... روى عنه زهاء ثلاثمائة رجل منهم أكثر من سبعين تابعيا»⁽²⁾.

وفي القرن الثاني نجد الإمام عبد الرحمان بن رستم بن بهرام بن كسرى⁽³⁾، وهو من العلماء بل من المفسرين فقد قال أصحاب التراجم "له كتاب في التفسير"⁽⁴⁾، وليس بين أيدينا الآن من النصوص ما يبين شكل هذا التفسير ولا مقداره، بل ولا نعرف من مشايخه في التفسير أحدا.

وقد تكون عبد الرحمان في المشرق، ثم خلفه من بعده في التفسير ولده عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم بن بهرام بن كسرى الرستمي الإباضي⁽⁵⁾.

= صفة الصفوة: ابن الجوزي، حيدر آباد 1355 هـ، 103/2، سير أعلام النبلاء، 12/5، تذكرة الحفاظ: شمس الدين الذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان 95/1، ميزان الاعتدال 93/3، تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دائرة المعارف النظامية العدد، 1325 هـ 263/7، معجم الأدباء: شهاب الدين أبي عبد الله باقوة الحموي القاهرة نشرة مرجليوت، الطبعة الهندية، سنة 1923 م، 62/5 شذرات الذهب 130/1، هدية العارفين 666/1، وفيات الأعيان 266/3، الأعلام 244/4، معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى 1414 هـ 1993 م. 382/2، كشف الظنون 430.

(1) طبقات أبي العرب 19. الرياض للمالكي 146/1.

(2) الطرهوني 256/1.

(3) معجم المفسرين 265/1، المدرسة القرآنية بالمغرب من الفتح الإسلامي إلى ابن عطية: عبد السلام الكتوني، مكتبة المعارف، الرباط 177 الأعلام 306/3، أعلام الجزائر 147، السير: للشماخي أحمد بن سعيد الشماخي ت 928 هـ، ت: أحمد السيابي، نشر وزارة سلطنة عمان سنة 1407 هـ 138، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية سليمان بن عبد الله الباروني التعوس 84/2، تاريخ الجزائر العام 22/2، 28، البيان المغرب 196/1، سير الأئمة 81-54.

(4) أعلام الإصلاح في الجزائر محمد علي دبوز 147.

(5) مصادر الترجمة: السير للشماخي 144، طبقات المشايخ بالمغرب: أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني (ت: 670 هـ) ت: إبراهيم طلاي مطبعة البحث، قسنطينة، 1394 هـ =

وقد ذكروا أنه اشتغل بالتفسير لنفس ما قلناه من أن الاشتغال بالقرآن كان هو أساس العلم الشرعي، ولحاجة جميع الفرق التي ظهرت في القرن الثاني بالخصوص إلى ما يدعم بقاءها تحت مظلة الإسلام، ويرد على من خالفها من الخصوم. بل إن أبا زكريا قد قال في ترجمته: "كان بيت الرستميين بيت علم في فنونه من الأصول والفقه والتفسير... له تفسير القرآن" ⁽¹⁾. والعبارة الأخيرة تفيد أن عبد الوهاب قد كتب أيضا في التفسير، وليس بين أيدينا الآن من النصوص والنقول ما يدل على طبيعة ذلك التفسير.

وأما التفسير عند أهل السنة فنجد ما فسرهُ مالك من مقادير الآيات القرآنية وقد جمع ذلك كله وسمعه عنه تلامذته وقرئ بالمجالس، ووقع الاهتمام به فإن الذهبي قد قال: "وله جزء في التفسير يرويه خالد بن عبد الرحمن المخزومي، يرويه القاضي عياض عن أبي جعفر أحمد بن سعيد، عن أبي عبد الله محمد بن الحسن المقرئ، عن محمد بن علي المصيصي، عن أبيه بإسناده" ⁽²⁾. وقد أعيد جمع هذا المقدار من التفسير فيما تأخر إذ "قد صنف مكّي القيسي كتابا فيما روي عن مالك في التفسير، ومعاني القرآن" ⁽³⁾.

وفي آخر البيان والتحصيل في كتاب الجامع منه نجد مجموعة من الآيات التي فسرّها الإمام مالك ونقل عنه ذلك التفسير، وقد كان هذا في القرن السادس من الهجري. وهو يدل على مدى اهتمام أهل المغرب عموما بالمنقول عن مالك إمام المذهب، وخصوصا إذا كان في التفسير. وسنعرض لبعض النماذج منه في محله لبيان طبيعة ذلك التفسير.

وفي القرن الثالث نجد أثرين لعلمين في التفسير من مشايخ الإباضية،

= 47/1، الأزهار الرياضية 100/2، الكامل في التاريخ: لابن الأثير علي بن محمد بن محمد الشباخي (ت: 630هـ)، دار صادر بيروت، 270/6، سير الأئمة 86، تاريخ الجزائر 23/2، البيان المغرب 197/1، الأعلام 183/4.

(1) الطرهوري 253/1. قال بلحاج شريفي: إننا لا نعلم للإباضية تفاسير كاملة لكتاب الله قبل الهواري إلا تفسيراً نسب إلى الإمام عبد الرحمان بن رستم وآخر إلى الإمام عبد الوهاب وليس ببعيد، أن يكون الهواري قد اطلع عليهما، وليس بين أيدينا الآن فيما بحث وعلمت شيء من تفسيريهما حتى نتمكن من المقارنة بين هذه التفاسير. تفسير هود بن محكم 183/1.

(2) سير أعلام النبلاء 89/8، ترتيب المدارك 207/1.

(3) سير أعلام النبلاء 91/8.

الأول منهما لمحمد بن يانس أبو المنيب النفوسي أبو محمد: وهو مفسر من الإباضية. صنفه الدرجيني⁽¹⁾ في علماء الطبقة الخامسة (200هـ/ 250هـ). قال أبو زكرياء: "ورجل عالم بفنون التفسير"⁽²⁾. ويقصد بفنون التفسير ما اتصل به من علوم القرآن والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول والآثار الواردة في ذلك وما نقل من التواريخ.

وفيما نقل على لسان محمد بن يانس يدل على ذلك فقد قال: "أما أنا فقد أخذت تفسير القرآن كله من الثقات وعلمته عنهم إلا حرفاً واحداً أو حرفين فإن اضطرت أجد مخرجاً"⁽³⁾. وهذا النص يدل أيضاً على وجود مشايخ قد برعوا في التفسير وجلسوا لتدريسه في وقت مبكر، وليس بين أيدينا إن كان ذلك بالمشرق أو بالمغرب. وعلى لسان محمد بن يانس أيضاً نقل المؤرخون ما يفيد قدرته على التفسير وتمكنه منه فإنه: "لما قدم على عبد الوهاب الرستمي قال له: أما أنا يا أمير المؤمنين فقد كفيتك فنون التفاسير إن شاء الله"⁽⁴⁾.

غير أنه ليس بين أيدينا اليوم ما يفيد أنه ألف في التفسير، ولا بين أيدينا نصوص من تفسيره عند غيره تبين مقدار ذلك التفسير ولا طبيعته، وقد أكد بعضهم ذلك بقوله: "أما أبو المنيب محمد يانس المفسر الذي ناظر المعتزلة فلم يؤثر عنه أنه ترك أثراً مكتوباً في التفسير"⁽⁵⁾. وواضح أن المناظرة في هذا القرن للمعتزلة ولغيرهم لم تكن لتتم بغير البراعة والتمكن من فهم القرآن خصوصاً من الإباضية.

والثاني من الشيوخ هو هود بن محكم الهواري⁽⁶⁾، ومن حسن الحظ أن

(1) الطبقات، 296/2.

(2) سير الأئمة، 102.

(3) سير الأئمة، 102.

(4) سير الأئمة 102.

(5) تفسير كتاب الله العزيز (الحاشية 185). هود بن محكم الهواري، تحب لحاج بن سعيد

شريف، دار الغرب الإسلامي بيروت - لبنان 368/1.

(6) مصادر الترجمة: معجم المفسرين 713/2، تاريخ التراث العربي: لفؤاد سزكين، أشرفت على طباعته ونشره إدارة الثقافة والنشر بالجامعة، جامعة الإمام، الرياض 1403هـ/ 1983. 20/3/1، التراث الإباضي 106، جواهر البداري: الجواهر المنقاة في إتمام ما أحل به كتاب الطبقات: أبو القاسم بن إبراهيم البداري، القاهرة، 1302هـ. 219، السير وأخبار الأئمة =

عمله التفسيري قد وصل إلينا. وقد ورد في ترجمته الموجزة أنه "اشتغل بتفسير القرآن من علماء النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة والنصف الأول من القرن الثالث، وقطنت أسرته جبل أوراس" ⁽¹⁾. وليس في أيدينا ما يبين مشايخه ولا أين درس التفسير، غير ما ذكره الشماخي: "عالم متفنن خائض وهو صاحب التفسير المعروف وهو كتاب جليل في تفسير كلام الله لم يتعرض فيه للنحو والإعراب بل على طريقة المتقدمين" ⁽²⁾. وهو نص على إيجازه لا يدل على أكثر من أن له تفسيراً وأنه متمكن في ذلك العلم لولا أن التفسير هو بين أيدينا وهو مختصر لتفسير يحيى بن سلام.

وفي القرن الرابع نجد من المالكية نموذجاً لواحد من مفسري المغرب الأوسط، (الجزائر)، وهو الإمام أحمد بن نصر الداودي، وهو من أهل القرن الرابع له كتاب في التفسير لم يعثر عليه بعد، وقد نقل منه الثعالبي في الجواهر الحسان نصوصاً عديدة تدل على طبيعة ذلك التفسير. بل إن عبارة الثعالبي تفيد أن ذلك التفسير كان موجوداً إلى حدود القرن التاسع فقد قال الثعالبي: "ومهما ذكرْتُ الداودي في هذا «المختصر»، فإنما أريد أحمد بن نصر الفقيه المالكِي، ومن تفسيره أنا أنقل. انتهى" ⁽³⁾.

ثالثاً: ازدهار حركة التصنيف في التفسير من القرن الثالث الهجري إلى الآن

لقد زحرت الجزائر بنشاط تفسيري كبير، وأصبحت الهمم إلى تحصيله مشرفة، وسأذكر جملة من مفسري الجزائر الذين بذلوا جهوداً عظيمة في تطوّر هذا الفن، وهذا الذكر لا يستلزم الحصر، بل هو استقراء غير تام لكتب

= الرستميين، ابن الصغير، ت: محمد ناصر، وإبراهيم بحار، الجزائر سنة 1405هـ، 359، طبقات الدرجيني 345/2، نظام العزابة 27، أخبار الأئمة الرستميين 81، السير 381، مقدمة تفسير هود بن محكم.

(1) أخبار الأئمة، 49.

(2) السير، 381.

(3) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي: هو الإمام، الرحالة، الجزائري، الشيخ أبو زيد، عبد الرحمن محمد بن مخلوف الثعالبي (780م/851م). من مؤلفاته: تحفة الإخوان في إعراب آيات القرآن جامع الأمهات في أحكام العبادات، والجامع الكبير الذي وضعه ملحقاً بشرحه على مختصر ابن الحاجب، جامع الفوائد، جامع الخيرات، جامع الهمم في أخبار الأمم والإرشاد في مصالح العباد وغيرها. تح: محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط1، 1408هـ/1997. 163/1.

التراجم والتاريخ، غرض الباحث بيان أن مدرسة⁽¹⁾ التفسير في الجزائر عريقة ومتجذرة.

فبعد العلمين البارزين هود بن محكم الأوراسي (ت: 280 هـ) وأبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المالكي (ت: 402 هـ) نذكر:

- الإمام المحقق محمد بن إبراهيم بن عبد الله الآبلي (ت: 757 هـ).
- الإمام المقري الجد (ت: 759 هـ).
- أبو عبد الله الشريف التلمساني (ت: 771 هـ).
- الإمام المفسر سعيد العقباني (ت: 811 هـ).
- أبو يحيى عبد الرحمن بن الشريف الإمام (ت: 826 هـ).
- أبو العباس أحمد بن عمر البسيلي (ت: 830 هـ).
- أبو العباس أحمد بن محمد المغراوي الشهير بابن زاغو (ت: 845 هـ).
- عبد الرحمن بن مخلوف التعالبي (ت: 875 هـ).
- محمد بن يونس السنوسي (ت: 895 هـ).
- أبو عبد الله محمد التنسي (ت: 899 هـ).
- أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي (ت: 909 هـ).
- يحيى الشاوي (ت: 1094 هـ).
- محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد الراشدي الناصري المعروف بأبي راس (ت: 1239 هـ).

- محمد بن الخضر حسين (ت: 1293 هـ).
- الأمير عبد القادر (ت: 1300 هـ).
- محمد بن يونس بن عيسى الطفيش الحفصي (ت: 1332 هـ).
- مصطفى العلوي (ت: 1362 هـ).
- العلامة ابن باديس (ت: 1359 هـ).

واستمر هذا العطاء إلى اليوم في أعمال محمد بن عبد الكريم الزموري الجزائري (ت: 1433 هـ)، وأبو بكر جابر الجزائري وتواتي بن تواتي وغيرهم. ولعل مثل هذه الدراسات سلطت الضوء على أعلام التفسير في الجزائر

(1) تطلق المدرسة ويراد بها مكان الدرس والتّعليم. وهذه تسمية حديثة، وتعرّف بأنّها جماعة من الفلاسفة أو المفكرين أو الباحثين تعتنق مذهباً معيناً، أو تقول برأي مشترك، ولكل مدرسة معالم خاصة تتسم بها، ويقابلها في اصطلاح المتقدمين (طبقة، أهل).

وتنصفهم، وتخرجهم من دائرة النسيان، وكذلك ترصد تطوّر مدرسة التفسير والأساس الذي بنيت عليه.

الخاتمة

إن مدرسة التفسير في الجزائر، عريقة ومتجذرة، فقد واكبت حركة التفسير عبر القرون، والمتأمل في حركة التفسير في الجزائر بدءاً من الفتح الإسلامي إلى الآن يلحظ ذلك التطور وعدم الاستقرار، واختلاف الاعتماد على النقل وإعمال الرأي في تفسير القرآن الكريم، وإقحام التأويل والمعاني الإشارية، وكذلك اعتماد منهج الاختصار للمصنفات السابقة، ليعود حديثاً إلى الإيجاز وقصر المباحث على ما يتعلق بمعاني الآيات المباشرة، ولعل إلقاء نظرة على أشهر علماء التفسير في الجزائر وجهودهم، يدرك تلك الحركة التفسيرية وتطورها وازدهارها في الجزائر مع تميّزها بملامح وخصائص في كل مرحلة من مراحلها، وهذا نظراً لارتباط التصنيف بالبيئة.

ويجدر التنبيه على مسألة في غاية الأهمية وهي أنّ دراسة جذور حركة التفسير في الجزائر تعين الدارسين والباحثين على معرفة ما هو أصيل ودخيل في التفسير. ■

قائمة المصادر والمراجع

- الجواهر الحسان في تفسير القرآن للشعالبي، تح: علي محمد معوض، وعادل أحمد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/1997.
- تاريخ التراث العربي، لفؤاد سزكين، أشرفت على طباعته ونشره إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام، الرياض، 1403هـ/1983.
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، القاهرة، دار الشعب، 1389هـ.
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الرابعة، 1398هـ/1978.
- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، دار الكتاب الحديث، ط2، 1396هـ/1976.
- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزادهم ونساکهم وسر من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم لأبي بكر عبد الله المالكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1403هـ.

- طبقات علماء إفريقية، لأبي العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الثانية، 1985م.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي (ت: 706هـ)، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط3، 1983م.
- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدباع (ت: 696هـ)، مكتبة الخانجي، بمصر.
- الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن ناصر السلاوي، تح: ولدي المؤلف، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م.
- سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية: 1402هـ / 1982.
- تفسير كتاب الله العزيز، هود بن محكم الهواري، تح: بلحاج بن سعيد شريفي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا، الطرهوني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط1، 1426هـ.
- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1414هـ / 1993.
- الكامل في التاريخ، لابن الأثير علي بن محمد الشيباني (ت: 630هـ)، دار صادر، بيروت.
- السير وأخبار الأئمة: أبو زكريا يحيى بن أبي بكر الورجلاني، تح: عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة 1405هـ.
- السير: للشماخي أحمد بن سعيد الشماخي (ت: 928هـ)، تح: أحمد السيابي، نشر وزارة سلطنة عمان، سنة 1407هـ.
- المدرسة القرآنية في المغرب من الفتح الإسلامي إلى بن عطية، عبد السلام الكنوني، مكتبة المعارف، الرباط.
- طبقات المفسرين، لأحمد بن محمد الأدوني، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1417هـ / 1997.
- معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، لعادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، الطبعة الثالثة، 1409هـ / 1897م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، 1400هـ.

- تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن جعفر العسقلاني، دائرة المعارف النضامية، الهند، 1325هـ.
- تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- معجم الأدباء، شهاب الدين أبي عبد الله الحموي، القاهرة، نشرة مرجليوث، المطبعة الهندية، سنة 1923م.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب مالك، القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي (ت: 544هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1387هـ.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان لأبي محمد بن عبد الله اليافعي اليمني، مطبعة بيروت، 1954م.
- مجموع فتاوى ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، ط2، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي.
- رحلة العبدري.
- معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، 1400هـ.
- هميان الزاد إلى أرض المعاد، محمد بن يوسف أطفيش، طبعة وزارة التراث والثقافة، عمان، 1406هـ / 1986.